لسات :

# ٢ ـ ابن بسام صاحب الذخيرة والشاعر ابو مروان الطُّبْنى

## للأستاذ عبد الرحمن البرقوقى

قال ابن بسام : كان أبو مروان هذا أحد حماة سرح الكلام ، وحملة ألوية الأقلام ، من أهل بيت اشتهروا بالشعر ، اشتهار المنازل بالبدر . أراهم طرأوا على قرطبة قبل افتراق الجماعة ، وانتشار شمل الطاعة ، وأناخوا فى ظلها ، ولحقوا بسروات أهلها . . . وأبو مضر أبوه زيادة الله بن على التميمى الطبنى هو أول من بنى بيت شرفهم ، ورفع فى الأندلس صوته بنباهة سلفهم . قال ابن حيان : وكان أبو مضر نديم محمد بن أبى عامر أمتع الناس حديثاً ومشاهدة وأنعمهم طرقاً ، وأحذقهم بأبواب الشحذ والملاطفة ، وآخذهم بقلوب الملوك والجلة ، وأنظمهم لشمل إفادة ونجعة ، وأبخلهم بدرهم وكسرة ، وأذبّهم عن حريم نشب ونعمة ، له فى ذلك أخبار بديعة من رجل شديد الخلابة يضحك من حضر ، ولا يضحك هو إذا نذر ، رفيع الطبقة فى صنعة الشعر ، كثير الاصابة فى البديهة والروية . انتهى كلام ابن حيان .

قال ابن بسام : وشعر أبى مضر ليس من شرط هذا المجموع لتقدم زمانه ؛ فأما ابنه مروان هذا فكان من أهل الحديث والرواية ورحل إلى المشرق وسمع من جماعة المحدثين بمصر والحجاز ، وقتل بقرطبة سنة سبع وخمسين وأربعمائة . . إلى أن قال : وجدت فى بعض التعاليق بخط بعض أدباء قرطبة قال : لما عدا أبو عامر أحمد بن محمد بن أبى عامر على الحذلى فى مجلسه وضربه ضرباً موجعاً وأقر بذلك أعين مطالبيه ، قال أبو مروان الطُّبْنى فيه :

شكرت للعامرى ما صنعا ... ولم أقل للحذيلى لما
ليث عرين غدا بعزته ... مفترساً فى وجاره ضبعا
لا برحت كفه مُمَكَّنَةً ... من الأمانى فنعم ما صنعا
وددت لو كنت شاهداً لها ... حتى ترى العين ذل من خضعا
إن طال منه سجوده فلقد ... طال لغير السجود ما ركعا

وابن رشيق القائل قبله :

كم ركعة ركع الضبْعان تحت يدى
ولم يقل سمع الله لمن حمده

والعرب تقول فلان يركع لغير صلاة إذا كنوا عن عهر الخلوة . .

قال ابن بسام : ولما صنفت كتابى هذا عن شين الهجاء ، وأكبرته أن يكون ميداناً للسفهاء ، أجريت ههنا طرفاً [1] من مليح التعريض ، فى إيجاز القريض ، مما لا أدب على قائليه ولا وصمة على من قيل فيه . والهجاء ينقسم قسمين : فقسم يسمونه هجو الأشراف ، وهو ما لم يبلغ أن يكون سباباً مقذعاً ، ولا هُجراً مستشنعاً ؛ وهو طاطا قديماً من الأوائل ، وثل عرش القبائل . انما هو توبيخ وتعْيير ، وتقديم وتأخير ، كقول النجاشى فى بنى المجلان ، وشهرة شعره مغنية عن ذكره [2] . واستَشْهَدوا عليه عمر وأنشدوه قول النجاشى فيهم فدرأ الحد

---

هلموا إلى قبر الزهاوىّ تقنص ... به نَفَساً من روحه ونطارد
وإن خيالا يملأ الشعر رهبة ... سكون على قبر الزهاوىّ ساند
وحجوا إلى بيت هو الفن نفسه ... أثارت «فينيس» ساحه وعطارد
فان بيوت الشاعرين مناسك ... وإن قبور النابغين معابد

أبا الشعر والفكر المنبه أمة ... عزيز علينا أنك اليوم راقد
وأن الذى هز القلوب هوامداً ... وحركها فى الترب ثاو فهامد
وأن فؤاداً شع نورا وقوة ... هو اليوم مسودُّ الجوانب بارد
فهل أنت راض عن حياة خبرتها ... ممارسة أم أنت غضبان حارد
أضاعوك حياً وابتغوك جنازة ... وهذا الذى تأباه صيدٌ أماجد

---

(١) وفى بعض النسخ طفاً بدل طرفاً

(٢) قال ابن رشيق فى كتابه العمدة فى ملح من رفعه الشعر ومن وضعه : وبنو المجلان كانوا يخزرون بهذا الاسم لقصة كانت لصاحبه فى تحول قرى الأضياف إلى أن هجاهم به النجاشى فضجروا منه وسبوه ؛ واستعدوا عليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقالوا يا أمير المؤمنين هجانا ! فقال : وما قال ؟ فأنشدوه :

إذا الله عادى أهل لؤم ورقة ... فعادى بنى المجلان رهط ابن مقبل

فقال عمر : إنما دعا عليكم ولعله لا يجاب ، فقالوا إنه قال : =

بالشبهات . وفعل مثل ذلك بالزبرقان حين شكا الحطيئة وسأله أن ينشده ما قال فيه فأنشده قوله :

دع المكارم لا ترحـــل لبغيتها
واقعد فانك أنت الطاعم الكاسى

فسأل عن ذلك كعب بن زهير فقال : والله ما أودّ له بما قال حمر النعم ... وقال حسان لم يهجه ولـكن سلح عليه بعد أن أكل الشُّبرُم [1] . . فهمّ عمر بمقابه ثم استعطفه بشعره المشهور .. وقد قال عبد الملك بن مروان يوما : أحسابكم يا بنى أمية [2] فما أودّ أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس وأن الأعشى قال فىّ :

تبيتون فى المَشْتَى مِلاءً بطونكم
وجاراتكم غَرثى يبتن خمائصا

ولما سمع علقمة بن علاثة هذا البيت بكى وقال : أنحن نفعل بجاراتنا هذا ؟ ودعا عليه . . . فما ظنك بشىء يبكى علقمة بن علاثة وقد كان عندهم لو ضرب بالسيف ما قال : حس ! . . . وقد كان الراعى يقول : هجوت جماعة من الشعراء وما قلت فيهم ما تستحى العذراء أن تنشده فى خدرها . ولما قال جرير :

فَغُضّ الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

أطعماً مصباحه ونام — وقد كان بات ليلته يتململ — لأنه رأى أنه قد بلغ حاجته وشفى غيظه . . قال الراعى : فخرجنا من البصرة فما وردنا ماء من مياه العرب إلا وسمعنا البيت قد سبقنا اليه حتى أنينا حاضر بنى نمير فخرج الينا النساء والصبيان يقولو قَبّحكم الله وقَبّح ما جئتمونا به . . والقسم الثانى هو السباب الذى أحدثه جرير أيضاً وطبقته ، وكان يقول إذا هجو فأضحكوا ، وهذا النوع منه لم يهدم قط بيتا ولا عيّرت به قبيلة وهو الذى سُنّا هذا المجموع عنه ، وأعفيناه أن يكون فيه شىء منه ، فان أبا منصور الثعالبى كتب منه فى يتيمته ما شاء الله وبقى عليه أكثره .

وحكى أبو عامر بن شهيد عن نفسه قال : عانيت بعض الاخوان عتاباً شديداً عن أمر أوجع فيه قلبى ، وكان آخر الشعر الذى خاطبته به هذا البيت :

وانى على ما هاج صدرى وغاظنى ليأمننى من كان عندى له سم

فكان هذا البيت أشد عليه من عض الحديد ؛ ولم يزل يقلق به حتى بكى إلىّ منه بالدموع . وهذا الباب ممتد الاطناب ويكفى ما مر ويمر منه فى تضاعيف هذا الكتاب . ومن شعر أبى الحسن علىّ بن عبد العزيز بن زيادة الله الطبنى مما أخذ عنه قوله :

كم بالهوادج يوم البين من رشأ يحفو عليه وشاح جائر قلق
وكم برامة من ريم يفارقها لهفان يثنيه عن توديعها الفرق
وترجس كفرند السيف ساومنى معللا بنسيم عَرفُه عبق
نادمته وشباب الليل مقتبل والنجم كَفٌّ يحيينا به الأفق
وفتية كنجوم السعد أوجههم فى أوجه الحادثات الجُوز تأتلق
نلهو برقراقة صفراء صافية بكاد ينجاب عن أضوائها الغسق
يسعى بها مرهف كالغصن نعّمه ماء النعيم عليه النَّور والورَق

وأنشدنى أيضاً :

يا ساليا عاشقيه وعاشقاً كل تيه
ومَن مداى ونقلى بوجنتيه وفيه
هلا حزيت مؤادى ببعض مالك فيه

وأنشدنى أيضاً لنفسه :

عجباً أن يكون ساكن قلبى راتعاً منه فى بساتين حبى
ويجازى على الوفاء بغدر حسبى الله ثم حسبى وحسبى
جازنى كيف شئت لا أترك الذنـ ـب إذا كان فرط حبك ذنبى

= قبيله لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل فقال عمر : ليت آل الخطاب كذلك . . قالوا فانه قال :
ولا يردون الماء إلا عشية إذا صدر الوراد عن كل منهل
فقال عمر : ذلك أقل للسكاك — يعنى الزحام — قالوا فانه قال :
تعاف الكلاب الضاريات لحومهم وتأكل من كعب بن عوف ونهشل
فقال عمر : كفى ضياعاً من تأكل الكلاب لحمه . قالوا فانه قال :
وما سمى الصحلات إلا لقولهم خذ الغصب واحلب أيها العبد واعجل
فقال عمر : كلنا عبد وخير القوم خادمهم . . فقالوا يا أمير المؤمنين هجانا ، فقال ما أسمع ذلك ، فقالوا فاسأل حسان بن ثابت ، فسأله ، فقال ما هجاهم ولـكن سلح عليهم . وكان عمر أبصر الناس بما قال النجاشى ولـكن أراد أن يدرأ الحد بالشبهات ، فلما قال حسان ما قال سجن النجاشى وقيل إنه حده . . .

(١) الشبرم حب يشبه الحمص يطبخ ويضرب مع الدواء ، وقيل إنه نوع من الشبح (٢) وفى نسخة احفظوا أحسابكم يا بنى أمية